بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

موضوع هذا الكتاب « مصر فى عصر الاخشيديين » ، أى تاريخ مصر الإسلامية فى فترة أربع وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أو على وجه التحديد بين عامى ٣٢٣ و ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م) .

وقد دفعنى إلى الكتابة فى تاريخ هذه الفترة رغبتى فى أن يستكمل المؤرخون المصريون المحدثون دراسة تاريخ مصر الإسلامية فى مراحله المختلفة . وقد قام أساتذة كلية الآداب فى جامعة فؤاد الأول وقام تلاميذهم من أبناء هذه الكلية بنصيبهم فى هذا الميدان ، فكتبوا فى تاريخ مصر فى عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك . وأتيح لى شرف المساهمة فى هذا المضمار بالكتابة فى تاريخ مصر فى فجر الإسلام أى منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية . ورأيت بعد ذلك أن عصر الاخشيديين لم يظفر حتى الآن بدراسة علمية مفصلة على الرغم مما له من شأن فى تاريخنا الإسلامى بوصفه — بعد العصر الطولونى — الفترة التى وضع فيها أساس استقلال مصر عن الخلافة ، والتى مهدت للفتح الفاطمى وقيام خلافة فى وادى النيل تناهض الخلافة العباسية وتجعل مصر قطب الرحى فى تاريخ الشرق الاسلامى .

وقد بدأت الكتاب ببحث مفصل فى تاريخ الفترة الواقعة بين سقوط بنى طولون وقيام الدولة الاخشيدية ، لأن تاريخ الاخشيديين لا يفهم حق الفهم قبل دراسة تلك الفترة التى مهدت لقيام محمد بن طغج الاخشيد والتى تربطها بتاريخ الاخشيديين أواصر وثيقة .

وحملت نفسى فى هذا الكتاب على الإيجاز فى عرض النظريات العامة والآراء الفقهية التى ترد فى كتب التاريخ ، ويمكن الافادة منها فى دراسة النظم الإسلامية بوجه عام . ورأيت أن ألتزم دراسة الاحداث التاريخية ونظم الحكم وأحوال المجتمع فى العصر الذى نحن بصدده وأن أطنب فى سرد القصص والحوادث التى تستنبط منها الحقائق التاريخية عن هذا العصر .

أما المصادر التى رجعت اليها فكثيرة ومتنوعة . ولكن بعضها يستحق أن أخصه ببعض الاشارة فى هذا التصدير . ولست أعرض هنا للمعاجم وكتب التراجم والموسوعات والمؤلفات الأساسية فى التاريخ والأدب وتقويم البلدان والفقه ، وما إلى ذلك ، مما لابد من الرجوع اليه لكل باحث فى التاريخ الإسلامى ، فسوف يأتى ذكرها جميعاً فى حواشى الكتاب وفى ثبت المراجع فى نهايته .

ومما يلاحظ فى مصادر التاريخ الإسلامى بوجه عام قلة الوثائق المحفوظة التى يمكن الاعتماد عليها والتى تعتبر عادة أهم المصادر لدراسة المجتمع . والواقع أن مثل تلك الوثائق الإدارية والقضائية والمكاتبات الخاصة تصور لنا حياة الشعوب تصويراً دقيقاً على نحو ما نرى فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى . ولكن كثيراً من الوثائق المحفوظة فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية مصدره الكنيسة والامارات الاقطاعية وهيئات المدن والصناع وما إلى ذلك من الهيئات التى كانت تعنى بالاحتفاظ بمثل هذه الوثائق التى تكسبها حقاً أو تثبت تقليداً . أما فى الإسلام فكان المرجع فى نظام المجتمع فيه إلى القرآن الكريم والسنة ، ولم تكن ثمة حاجة إلى مثل تلك الوثائق ، ولذلك كانت الوثائق التى وصلت الينا من تاريخ الإسلام فى العصور الوسطى وثائق حكومية وليس من بينها وثائق كثيرة لهيئات مختلفة من المجتمع يمكن أن نستنبط منها شيئاً كثيراً عن حياة الشعب ، فضلا عن أنها بوجه عام ليست من الكثرة بحيث نستطيع أن نستنبط منها أحكاماً عامة مطمئنين إلى أن مثل هذه الأحكام لا تكون خاصة بحالات استثنائية .

ومهما يكن من الأمر فقد أفدت فى دراسة العصر الاخشيدى من بعض ما جاء فى الأوراق البردية المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، والتى نشرها الأستاذ أدولف جرومان ، ومن بعض نصوص فى أوراق بردية لم ينشرها الأستاذ جرومان بعد ولكنه تفضل فأطلعنى عليها . وأفدت أيضاً من نصوص أوراق بردية محفوظة فى مجموعة الأرشيدوق رينر بالمكتبة الأهلية فى ڤينا .

ورجعت إلى ما ألف من الكتب عن السكة الاسلامية لكشف المعروف من النقود الاخشيدية ومحاولة استنباط بعض الحقائق التاريخية من الأسماء والنصوص المنقوشة عليها .

وأفدت كثيراً من الحواشى والبيانات التى دونها ڤان برشم وڤييت فى الجزءين الخاصين بمصر من كتاب جامع الكتابات العربية (Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte) ، كما اعتمدت على بعض الكتابات الأثرية التى جمعها سوفاچيه وكومب وڤييت فى السجل التأريخى للكتابات العربية (Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe) .

أما ما كتب عن الأخشيديين فى المراجع التاريخية القديمة فنوعان : الأول ما كتبه المؤرخون المصريون فى العصور الوسطى الاسلامية ، وطبيعى أنهم يمثلون وجهة النظر المصرية وأن تاريخ مصر نفسه هو أساس ما كتبوه ، ولكنهم يعرضون لتاريخ الخلافة وسائر ديار الاسلام ولا سيما ما يتصل منه بتاريخ مصر ، والثانى ما جاء فى مؤلفات المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ الخلافة والامبراطورية الاسلامية بوجه عام ، وطبيعى أنهم يمثلون وجهة نظر الخلافة ، ولكنهم يعرضون أحيانا لتاريخ الاخشيديين ، ولا سيما ما يتصل بعلاقاتهم بسائر ديار الاسلام . ولاشك فى أن كلا النوعين يكمل أحدهما الآخر .

وممن يمثل النوع الأول الكندى وابن زولاق والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى . أما الكندى فقد عاصر الاخشيديين وتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، وسوف نفصل الكلام عليه فى الباب الذى سنعقده فى هذا الكتاب للحديث عن العلماء والأدباء . وكتابه

الأساسى الذى وصل إلينا هو كتاب الولاة وكتاب القضاة الذى نشره المستشرق الانجليزى رڤن جست (Rhuvon Guest) سنة ١٩١٢ ، وقد تحدث الكندى فى كتاب الولاة عن تاريخ مصر منذ فتحها العرب حتى وليها أبو القاسم أونوجور بن الاخشيد سنة ٣٣٥ ، فهو مرجع معاصر عظيم الشأن فى تاريخ الفترة التى سبقت قيام الدولة الاخشيدية وفى تاريخ الأخشيد نفسه . أما تاريخ خلفاء الاخشيد فان الكندى لم يعرض له . والمعروف أن ابن زولاق كتب ذيلا لكتاب الكندى أتم فيه تاريخ الدولة الاخشيدية ووصل إلى بداية الدولة الفاطمية فى مصر ، ولكن الراجح أن التذييل الذى نشر فى طبعة جست من كتاب الولاة ليس هو الذيل الذى كتبه ابن زولاق وإنما هو لمؤلف مجهول . وسوف نعرض لهذه المسألة عند مانقف للموازنة بين بعض النصوص التاريخية بشأن التكييف القانونى لحكم كافور . وتحدث الكندى فى كتاب القضاة عمن ولى القضاء فى مصر من سنة ٢٣ هـ إلى سنة ٢٤٦ ولكن أحمد بن عبد الرحمن بن برد كتب ذيلا له انتهى به إلى سنة ٣٣٦ هـ ، وقد أفدت من هذا الذيل كما أفدت من الملحق الذى نشره جست واستوفى به أخبار القضاة الذين ولوا بمصر بين سنتى ٢٣٧ و ٤١٩ نقلا عن كتاب رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وكتاب النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن شاهين سبط ابن حجر ، وكتاب تاريخ الاسلام للذهبى المتوفى سنة ٧٤٨هـ .

ولكن أهم مرجع فى تاريخ الاخشيديين هو ابن زولاق لأنه كان معاصرا لهم وعنى بتاريخهم عناية خاصة فقد ولد سنة ٣٠٦ هـ وتوفى سنة ٣٨٧ وسوف نفصل الكلام عليه أيضا فى الفصل الذى نعقده فى هذا الكتاب للعلماء والأدباء فى العصر الاخشيدى . والذى يعنينا هنا من آثاره العلمية كتابان : الأول سيرة الاخشيد والثانى أخبار سيبويه المصرى . أما كتاب سيرة الاخشيد فقد ذكره ياقوت فى ترجمته لابن زولاق فى معجم الأدباء (جـ ٧ ص ٢٢٥ وما بعدها) وذكره ابن سعيد فى كتاب المغرب (ص ٤ — ٥) والمقريزى فى الخطط (جـ ٢ ص ٢٥ و ص ١٨١) . ولكن هذا الكتاب

لم يصل إلينا مستقلا قائما بذاته وإنما نقله ابن سعيد المؤرخ المغربى فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » والواقع أن سيرة الاخشيد لابن زولاق قوام جزء كبير من السفر الرابع من كتاب المغرب سماه ابن سعيد « كتاب العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » ونقل فيه فضلا عن سيرة الاخشيد لابن زولاق أخبارا عن الاخشيديين من تاريخ الكامل لابن الأثير ومن تاريخ مصر للقرطى .

وقد نقل ابن سعيد عن الحسن بن زولاق أن الذى دعاه إلى كتابة سيرة الاخشيد أنه قرأ سيرة هذا الأمير بقلم محمد بن موسى بن المأمون الهاشمى وأتى على عيوبها . والظاهر أن الهاشمى كتبها للاخشيد فى آخر أيامه ليتقرب بها إليه ولكن الاخشيد أدرك أنها أقرب إلى الذم منها إلى المدح لأن المؤلف أطنب فى ذكر نفقاته واقتصاده وحلمه ومحبته للسلم والصفح ولم يذكر « أبوته ولا موضعه ولا ولاياته ولا حروبه ولا سفراته ولا أفعاله مع أعدائه » . ولذا فقد منع الإخشيد الناس من نسخ هذه السيرة التى كتبها الهاشمى . وبعد وفاة الإخشيد طلب ابنه الأمير على ابن الإخشيد من ابن زولاق أن يكتب سيرة أبيه فكتب ابن زولاق الكتاب الذى نحن بصدده .

وقد أعجب به على بن الإخشيد ووالدته وأجزلا العطاء لابن زولاق وكانا يصلانه كل عام .

ولكن النسخة التى نقلها ابن سعيد من سيرة الاخشيد لابن زولاق ليست هى النسخة التى قدمت لعلى بن الإخشيد وإنما هى النسخة التى زاد فيها ابن زولاق « أشياء بعد وفاة على بن الاخشيد »[1] والراجح أن ابن زولاق تأثر فى بعض هذه الزيادات باتصاله بالفاطميين وعمله على التقرب إليهم ، والحق أن كلامه على ما حل بجثة الاخشيد وبعض إشارات أخرى فى كتابه لا ينتظر أن يتضمنها كتاب عن الاخشيد يقدم الى ابنه ويحوز رضاه . وفضلا عن هذا فان سيرة الاخشيد لابن زولاق — كما نقلها ابن سعيد — تبدو لنا مفككة الأطراف ضعيفة التأليف ، بل تبدو مجموعة من الجزازات غير المرتبة ، غنية بالبيانات والاخبار والحقائق التاريخية ولكن بغير ترتيب موضوعى أو تاريخى .

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٥

أما « كتاب أخبار سيبويه المصرى » فقد جمع فيه ابن زولاق نوادر زميل له فى الدراسة وهو سيبويه الذى كان يعتبر من عقلاء المجانين وكانت له حوادث ونوادر طريفة مع الأمراء والعظماء والعلماء ، كما كانت له تعليقات على مايراه من أحداث أو يعلمه من أخبار . وطبيعى أن مثل هذا الكتاب يكشف ، بطريق غير مباشر عن كثير من النواحى الاجتماعية والعلمية والأدبية فى العصر الاخشيدى .

ومن المؤرخين المصريين الذين عرضوا لتاريخ الدولة الاخشيدية عز الملك المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ . وكانت له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومحاضرات . وأهم آثاره العلمية « كتاب أخبار مصر » تحدث فيه عن حكامها إلى سنة ٤١٤ هـ [١] . وفى مكتبة الاسكوريال أجزاء مخطوطة من هذا الكتاب . ولكن الذى يعنينا هنا أن المؤرخين المصريين بعد العصر الفاطمى — ولا سيما المقريزى وأبو المحاسن — كانوا يعتمدون على كتاب المسبحى وينقلون عنه .

وثمة مؤرخ مغربى هو ابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ ، وقد ولد فى غرناطه سنة ٦١٠ وتلقى العلم فى اشبيلية [٢] . ونستطيع أن نلحقه بالمؤرخين المصريين — فيما يخص الكتابة على الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية والأيوبية — لأنه وصل إلى مصر سنة ٦٣٩ وأقام فيها بضع سنوات واتصل ببعض أمرائها وساهم بالكتابة فى تاريخها . وقد مر بنا أنه نقل فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » سيرة الاخشيد التى كتبها ابن زولاق . ونضيف هنا أن السفر الرابع الذى نشره المستشرق تلكوست من هذا الكتاب يضم — عدا سيرة الاخشيد — نبذا عن الأدباء والعلماء وأعلام رجال الدولة فى مصر الاسلامية وقد نقلها ابن سعيد عن القرطى والمسبحى وغيرهما ، وقد أفدنا كثيرا من هذه المقتطفات فى دراسة رجال العلم والأدب والسياسة فى العصر الاخشيدى .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٥

(٢) ابن شاكر : فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٩

ومن المراجع الثمينة فى تاريخ الدولة الاخشيدية ما كتبه جمال الدين على بن ظافر الازدى المصرى . وقد ولد هذا المؤرخ سنة ٥٦٧ واتصل بالأمراء الايوبيين وولى الوزارة لبعضهم ثم توفى سنة ٦٢٣ وأهم آثاره العلمية كتاب الدول المنقطعة [١]، ويضم تاريخ الدول الحمدانية والساجية [٢] والطولونية والاخشيدية والفاطمية وتاريخ الدولة العباسية إلى سنة ٦٢٢ هـ . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا فى مكتبة (Ghota) غوطا فى المانيا وفى المتحف البريطانى ، ولكن الجزء الخاص بالدولة الساجية فيه نشر فى مدينة بون على يد المستشرق فرياتج ، كما أن الجزء الخاص بالدولتين الطولونية والاخشيدية نشره المستشرق وستنفلد سنة ١٨٧٥ فى كتابه عن ولاة مصر [٣] . وقد نقل وستنفلد هذا الجزء من مخطوطة غوطا (رقم ٢٤٥) . واعتمدت فى هذا الكتاب على الجزء الذى نشره وستنفلد ورجعت إلى صفحاته المطبوعة ومع ذلك فلم يفتنى الرجوع إلى الصورة الشمسية المحفوظة فى دار الكتب المصرية لجزء من مخطوطة المتحف البريطانى يضم تاريخ الدولة الاخشيدية وتاريخ بعض الدول الاخرى فى كتاب ابن ظافر [٤] . وتبين لى أن هذه النسخة المحفوظة فى المتحف البريطانى تمتاز بزيادات يسيرة عما نشره وستنفلد ، ولسنا ندرى هل يرجع هذا إلى نقص فى مخطوطة غوطا أو إلى أن وستنفلد حذف فيما نشره جزءا من القسم الخاص بتاريخ الدولة الاخشيدية فى المخطوطة المذكورة . ومهما يكن من الامر فقد أفدت من تلك الزيادات وفصلت الكلام عليها فى موضعها من الكتاب .

أما تقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فقد عرض لتاريخ الدولة الاخشيدية فى كتابين من كتبه : الأول « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » والثانى « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » . وقد نقل المقريزى فى الكتاب الأول

---

(١) المرجع نفسه ج ٢ ص ٥١

(٢) فى اذربيجان أنظر Zambaur : Manuel de Genéalogie p. 179

(٣) F. Wustenfeld. Die Statthalter von Agypten zur Zeit der Chalifen 111 pp. 58-62 & IV pp. 57-62.

(٤) دار الكتب المصرية رقم ٨٩٠ تاريخ . وفى مجموعة الصور الشمسية بجامعة الدول العربية صورة أخرى من هذه المخطوطة .

معظم تاريخ الفترة التى سبقت قيام الدولة الاخشيدية وتاريخ الدولة الاخشيدية نفسها عن كتاب الولاة للكندى[١]، وعن الذيل الذى كتبه ابن زولاق لهذا الكتاب. ونقل عن ابن زولاق ما كتبه عن أسرة الماذرائيين التى سيأتى الكلام على ما كان لها من شأن فى الحياة المصرية العامة من العصر الطولونى إلى نهاية العصر الاخشيدى. أما كتاب التعاظ الحنفا فقد أفدت منه فى دراسة علاقة الاخشيديين بالفاطميين إلى أن تم للفاطميين الاستيلاء على مصر.

ومن المؤرخين المصريين الذين كتبوا فى تاريخ الاخشيديين أبو المحاسن بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٨٩ م). وقد تقلد بعض المناصب الرفيعة فى الدولة على عهد السلطان المملوكي برقوق وابنه السلطان فرج ودرس على أعلام المؤرخين فى ذلك العصر ولا سيما المقريزى والعينى وابن حجر[٢]. وأهم آثاره العلمية كتاب « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » ويشمل تاريخ مصر من الفتح الإسلامى إلى سنة ٨٥٧ هـ. وعلى الرغم من أنه لا يعد أصيلا إلا فى كتابته عن عصر المماليك وأن ما كتبه عن العصور السابقة نقله عمن سبقوه من المؤرخين، أقول إننى مع ذلك أفدت منه فى الكتابة عن الاخشيديين فائدة جلية.

ورجعت إلى كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ فأفدت منه كثيرا فى الكلام على الفقهاء والشعراء والعلماء والأدباء فى العصر الاخشيدى.

أما المؤرخون الذين كتبوا فى تاريخ الخلافة عامة فقد أفدت من بعضهم ولا سيما فى دراسة العلاقة بين الاخشيديين والخلافة. فرجعت الى الذيل الذى كتبه عريب ابن سعد على تاريخ الطبرى وانتهى فيه الى سنة ٣٦٥ هـ. كما رجعت الى كتاب مروج الذهب

---

(١) راجع عن العلاقة بين الكندى والمقريزى مقال الأستاذ فييت فى العدد الثانى عشر (١٩١٦ م) من مجلة المجمع العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale.

(٢) G. Wiet : L'Historien Abul-Mahasin (Bulletin de l'Institut d'Egypte T. XII) pp. 89-105.

ومعادن الجواهر وكتاب التنبيه والاشراف وكلاهما للمسعودى الذى عاصر صدر الدولة الاخشيدية وزار مصر عدة مرات وأقام بها فترة من الزمن قبل وفاته سنة ٣٤٦ هـ .

وعرض مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) لتاريخ الدولة الاخشيدية فى بعض المواضع من كتاب « تجارب الأمم » .

أما هلال الصابى المتوفى سنة ٤٤٨ هـ [١] فقد خلف لنا فى كتابه « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » بيانات دقيقة عن أخبار الوزراء وأعمالهم المالية والإدارية وعلاقاتهم بأنحاء الإمبراطورية الإسلامية . فأفدت كثيرا فى دراسة أسرة الماذرائيين وعلاقة مصر بالخلافة فى العصر الاخشيدى .

وكتب يحيى بن سعيد الانطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ذيلا على تاريخ ابن البطريق وقد أفدت منه فى دراسة علاقة الاخشيديين بأهل الذمة فى مصر . أما ابن الأثير وأبو الفدا والذهبى فلا حاجة بنا إلى التعريف بهم ، وحسبنا أن نشير إلى ما أفدنا من تواريخهم فى علاقة الاخشيديين بالخلافة وبالحمدانيين .

* * *

وقد رجعت إلى عدد كبير من مؤلفات المحدثين من مصريين ومستشرقين وسوف يأتى ذكرها جميعاً فى ثبت المراجع فى نهاية الكتاب . ولكننا نشير هنا إلى كتاب « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » للاستاذ آدم متز لأنه رجع إلى مخطوطات فى دور الكتب الأوربية ، وأشرت إلى ما نقله من بعض تلك المخطوطات التى لم أستطع الرجوع اليها .

ومن المراجع الحديثة التى أفدنا منها فائدة طيبة الرسالة التى كتبها عن الماذرائيين المستشرق الألمانى جوتشلك (Hans Gottschalk) سنة ١٩٣١ م . وقد عرض فيها

---

(١) راجع ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٢ والأب لويس شيخو اليسوعى : هلال الصابى وتآليفه (فى مجلة المشرق ، السنة السادسة سنة ١٩٠٣) ص ٤٦٦ — ٤٧٥

لتاريخ هذه الأسرة ورجع إلى كثير من المصادر التاريخية القديمة ولا سيما قطعتين كبيرتين من كتاب المقفى للمقريزى وقطعة من تاريخ الإسلام للذهبي . وكلها عن تاريخ المماذرائيين. وذيّل جوتشلك رسالته بنشر هذه القطع الثلاث . وقد رجعنا إليها ووازنا بين ما جاء فيها وما نعرفه من النصوص التاريخية الأخرى ما

القاهرة أغسطس ١٩٥٠

سيرة اسماعيل كاشف

مقـــدّمة

تفكك الامبراطورية الاسلامية

وطد الأمويون أركان الأمبراطورية الاسلامية فعظمت واتسعت أرجاءها وامتدت من الهند وآسيا الوسطى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأسود والبحر المتوسط وجبال البرانس شمالا الى بحر العرب وصحارى السودان جنوبا [1] .

ولـكن بنى أمية تركوا فيها رغم ذلك بذورا أدت الى التمزق والاضمحلال، فان التعصب للعرب ألب الموالى وحبهم فى كل خارج على سلطان بنى أمية ، وأذكى الأمويون نار النزاع بين القحطانيين والعدنانيين فظهر أثره فى كل قطر حل العرب به ، كما أن إمعانهم فى اضطهاد بنى هاشم ربط مصيرهم بمصير الموالى فتمهد الأمر للخلافة العباسية وانتقلت العاصمة من دمشق الى بغداد فكان هذا إيذانا ببدء عهد الانقسام والتفرق بين أنحاء تلك الامبراطورية ، لأن قيام العباسيين — كان ثورة من الفرس ضد أهل الشام — الذين قامت على اكتافهم الدولة الأموية . فعلا شأن الفرس وصارت لهم الـكلمة الأولى فى الدولة وأمسك البرامكة بأزمة الأمور حتى نكبهم الرشيد . وقد ظهرت الشعوبية بصورة جلية وفرقت البيت الخليفى فانقسم على نفسه وقام النزاع بين الأمين والمـأمون وكان له أثره فى تمزيق الوحدة الاسلامية ، فاستقلت جهات من الامبراطورية فى عهد المـأمون وأسس والى اليمن فى عهده أسرة بنى زياد التى ظلت تحكم البلاد حتى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كما أن طاهر بن الحسين والى المأمون استقل بخراسان وأسس الدولة الطاهرية .

---

(١) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٦٤ وابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٠ — ١١ ، ومتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣ — ٤

وفضلا عن ذلك فان العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الامبراطورية الاسلامية أحست بكيانها وساعد على ذلك اتساع الامبراطورية وعجز الخلفاء عن السيطرة على أقطارها المترامية الأطراف .

وكان أول تمزق فى الامبراطورية ذيلا لسقوط بنى أمية ، فان عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام أفلح فى النجاة من التعذيب والاضطهاد اللذين حلا بأفراد الأسرة الأموية على يد العباسيين حين آلت اليهم مقاليد الحكم ويمم عبد الرحمن شطر مصر ثم افريقية ثم المغرب ، ولكن أنظاره اتجهت الى الأندلس واتخذها مسرحا لنشاطه السياسى ، وكان النزاع فى شبه جزيرة ايبريا قائما بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أى بين القيسيين واليمنيين ، ونجح عبد الرحمن فى التوفيق بين الفريقين حتى استقبلوه ونصبوه أميرا عليهم سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) فأسس امارة قرطبة ، وانفصلت اسبانيا عن الامبراطورية الاسلامية .

ولم تفلح الحكومة العباسية فى أن تعيد الأندلس الى حظيرة سلطانها وظلت أسرة عبد الرحمن الداخل واكتفى حكامها بلقب الامارة الى أن جاء عبد الرحمن الناصر فاتخذ لقب الخلافة سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) .

ولم تلبث افريقية أن نسجت على منوال الأندلس وكان عبد الرحمن بن حبيب والى افريقية قد ثار على الأمويين سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) وطرد أتباعهم من القيروان ولما انتقل الحكم الى بنى العباس ثبتوا عبد الرحمن فى ولاية افريقية ، ومع ذلك فانه أبى الاعتراف بسلطان الخليفة ولكنه فشل وفشلت حركته الاستقلالية . وكان البربر فى المغرب يقومون بالثورة بعد الأخرى وتأسست أسرات خارجية كبنى مدرار فى سجلماسة وبنى رستم فى جنوب تونس والجزائر كما قام بنو أدريس فى المغرب الأقصى .

وهكذا لم يبق للعباسيين فى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) من الإمبراطورية الإسلامية فى المغرب إلا افريقية (أو تونس الحالية) ، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها إسمياً مدة قرن من الزمان إلا بوساطة أسرة الأغالبة التى ظلت تحكمها (مع سيادة إسمية للخليفة العباسى) من سنة ١٨٤ إلى سنة ٢٩٦ هـ (٨٠٠—٩٠٩ م) .

ثم ظهر فى الأفق السياسى عامل جديد ، فقد زاد عدد الجند الترك ونما نفوذهم منذ عهد هرون الرشيد ، وشطب المعتصم العرب من ديوان الجيش واستبدل بهم الترك وشيد لهم سامرا . واستفحل أمر أولئك الجند وأصبح فى يد زعمائهم مصير الخلفاء .

وكان من أثر ذلك كله أن ضعفت السلطة المركزية ضعفاً ملحوظاً وبدأت سنة جديدة فى حكم بعض الأقاليم الإسلامية إذ أصبح الخلفاء يقطعونها أولياء عهدهم ثم بعض قواد الجند . وكان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء على مقربة من بلاط الخليفة خشية أن تدبر الدسائس ضدهم أو أن يبعدوا عن مسرح الأحداث السياسية . وكان الخلفاء أنفسهم يرحبون ببقائهم فى العاصمة خشية أن يستقلوا بما يولونه من الأقاليم ، فكان الولاة لا يحكمون بأنفسهم بل يوفدون إلى الأقاليم نواباً عنهم ويتلقون منهم ما يتبقى من الضرائب بعد دفع نفقات الإدارة فيدفعون إلى بيت مال الخلافة جزءاً منه . وبدأ هذا النظام فى مصر منذ سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م)[1] وبقى إلى أن وفد أحمد بن طولون إليها نائباً عن واليها القائد التركى . واستغل ابن طولون ضعف حكومة العراق واشتغالها بثورة الزنج فى اقليم البصرة فأفلح فى الاستقلال عن الدولة العباسية وأسس فى مصر الدولة الطولونية التى حكمت من سنة ٢٥٤ إلى سنة ٢٩٢ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م) .

على أن ما حدث بمصر قد حدث بغيرها من الأقطار الإسلامية المختلفة فإن أبا دلف والى همذان فى بداية القرن الثالث الهجرى استقل بها وخلفه أفراد أسرته بعد أن استولوا على أصفهان ونهاوند .

وقد أخطأ العباسيون كما أخطأ الأمويون من قبل فأمعنوا فى اضطهاد العلويين فانتشرت الدعوة لهم فى كافة الأقطار كما ظهرت الدعوة القرمطية فى البحرين والدعوة الاسماعيلية فى سلمية بالشام وفى المغرب ، كما أن بعض العلويين نجحوا سنة ٢٥٠ هـ فى الاستيلاء على الحكم فى طبرستان وبلاد الديلم وجيلان جنوبى بحر قزوين وقد ظلت

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٥

هذه الأسرة العلوية تسود تلك الأقاليم إلى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) . حين هزم السامانيون آخر ملوكها الحسن بن قاسم .

على أن الشيعة أحرزوا النجاح الأعظم فى بلاد المغرب فى القرن الثالث الهجرى حين خرج الدعاة الاسماعيليون إلى أرض كتامة يبشرون بمذهبهم ويدعون لخليفة من ولد على وانتهى الأمر بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب على يد عبيد الله المهدى . على أن الفاطميين بعد أن تم لهم الأمر لم يكتفوا بالسلطان الدنيوى بل اتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) وتبعهم عبد الرحمن الناصر فى الأندلس فتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) .